مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 13 / العـــدد: 02 (2023)، ص 273 - 286

تجديد النّحو العربي في ضوء اللسانيّات الحديثة بين التّأصيل والوصف
(دراسة موازنة بين عبد الرّحمن الحاج صالح وتمّام حسّان)

Renewal of Arabic grammar in the light of modern linguistics
between authentication and description
(Balancing study between Abd al-Rahman al-Hajj Saleh and Tammam Hassan)

بن ساسي بلقندوز*
جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس
(الجزائر)
belguendouz.bensassi@univ-sba.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/08 تاريخ القبول: 2022/11/08

ملخّص:

تكمن أهمّية هذا البحث في وصف جهود علماء العربيّة المحدثين، السّاعية إلى تجديد النّحو العربيّ، من خلال تأصيل الفكر النّحويّ العربيّ، بنقض فرضيّة تأثّره بمؤثّرات أجنبيّة عنه، وبإثبات أنّ علمَ النّحو قد انبثق من عقليّة عربيّة محضة؛ امتازت بالبساطة والعفويّة في تناول القضايا النّحويّة، وهذا هو ما قام به عبد الرّحمن الحاج صالح؛ الذي أقرّ أنّ نظرة النّحاة العرب القدامى إلى اللّغة كانت نظرة لغويّة بحتة، تتعلّق بواقع الخطاب اللّغويّ، وما يرتبط به فحسب، بعيدة عن الاعتبارات المنطقيّة.

أمّا تمّام حسّان، فقد نهج منهجا لسانيًّا وصفيًّا؛ نَقَدَ من مُنطَلَقِه نظريّة العامل والقياس والتّعليل، ثمّ اقترح نظريّة تضافر القرائن، لتفسير ما لم تُحكِمه القواعد النّحويّة، مستهجنًا بذلك لجوء النّحاة إلى ظاهرة التّأويل.

فما هو الأثر الفعلي لجهود هذين الباحثيْن في التّجديد النّحويّ؟

خلص الباحث إلى أنّ عمَلَيْ الباحثيْن يعتبران من قبيل التّجديد النّحويّ، السّاعي إلى طريق التّيسير؛ إمّا بتأصيل الفكر النّحويّ العربيّ، بإثبات عدم تأثّره بمؤثّرات خارجيّة في زمن الاحتجاج النّحويّ، وإمّا بنقد ما لحق بالنّحو العربيّ من تعقيد بسبب تأثّره فيما بعد زمن الفصاحة، بالمنطق والفلسفة، وسريان مفاهيمهما في التّعليل والقياس والتّأويل النّحويّ.

الكلمات المفتاحيّة: النّحو العربيّ، التّجديد النّحويّ، التّأصيل، الوصف.

Abstract :

The importance of this research lies in the description of the efforts of modern Arab scholars, who seek to renew the Arabic grammar, through the consolidation of Arabic grammatical thought, by rejecting the hypothesis that it is influenced by foreign influences, and by demonstrating that the science of grammar has emerged from a purely Arab mentality, which is what Abd al-Rahman al-Haj Saleh did.

* بن ساسي بلقندوز.

And Tammam Hassan also has a descriptive linguistic approach to Arabic grammar; he criticized it, and he propounded a new theory called: convergence of clues.
So, what is the real trace of the efforts of these two researchers in grammatical renewal?
The researcher concluded that the two works of these two researchers are considered a grammatical renewal, seeking the facilitation of Arabic grammar.
Keywords: Arabic grammar, Grammatical renewal, authentication, description.

1. مقدّمة:

بدأت دراسة اللّغة العربيّة بتلقّي الخطاب القرآنيّ، وجمع النّصوص من أفواه الرّواة، ومشافهة الأعراب، فتَكَوّن بذلك مجال ثَرٌّ للاستقراء واستنباط القواعد النّحويّة من مجموع الشّواهد الفصيحة المسموعة، وبعد انتهاء عصر الاحتجاج اللّغويّ، بانقضاء زمن الفصاحة، توقّف السّماع اللّغويّ، وراح النّحاة يقيسون الكلام على الشّواهد القديمة، بمقتضى القواعد المستخلصة منها. وبابتعاد النّحاة عن دراسة الواقع اللّغويّ؛ بتبنّي المنطق الأرسطي في القياس والتّعليل، وببناء الأحكام النّحويّة من منطلقات فلسفيّة، تعقّدَ النّحو العربيّ، وشُقّ بذلك سبيلُ تعلّمه على العرب، وعلى النّاطقين بغير العربيّة على حدّ سواء.

2. التّجديد النّحوي

هو محاولة إعادة دارسة اللّسان العربيّ بإعادة النّظر في بناء القواعد النّحويّة، وفق مناهج لسانيّة حديثة، تختلف عن المنهج التّقليديّ الّذي امتزج بالمنطق الأرسطي والفلسفة اليونانيّة، فابتعد عن واقع اللّغة. من هنا رأى بعض حاملي راية التّجديد، ضرورة تأصيل البحث النّحويّ العربيّ بالرّجوع إلى زمن نشأته وبناء أصوله، حيث كان المنهج عربيًّا علميًّا خالصًا، وتبنّي المنهج اللّسانيّ الوصفيّ، الّذي رأوا أنّه يحقّق الهدف من الدّراسة اللّسانيّة، وهي تسجيل الأحداث اللّغويّة كما هي، وكما تحدث في الواقع المشاهد.

3.أصالة النّحو العربيّ

1.3.مزاعم تأثّر النّحو العربيّ بالمنطق اليونانيّ

كلّما ذكر تاريخ النّحو العربيّ، فإنّه كثيرًا ما يُقرَن بأثر أجنبيّ، أسهم في نشوئه، ومن ذلك أنّ النّحو العربيّ متأثّر بالدّراسات اليونانيّة، أو متأثّر بالدّراسات الهنديّة، لكنّ هذا الحال تغيّر، خصوصا مع ازدهار الدّراسات اللّسانيّة المتأثّرة بفكر تشومسكي، الّذي ينظر إلى اللّغات عمومًا على أنّها تمثّلات لشيء واحد عامّ في بني الإنسان، ولذلك لا نستغرب التّشابهات الكثيرة والعميقة بين اللّغات، كما لا نستغرب أن يصل بنو الإنسان في دراسة لغاتهم إلى نتائج متشابهة[1].

والعلوم اللّغويّة شأنها شأن باقي العلوم الإنسانيّة، كعلم الاجتماع وعلم النفس، وعلم التّاريخ، وغيرها من العلوم، تشترك فيها الإنسانيّة كلّها، ولا تفصلها حدود جغرافيّة، ولا يستأثر بالبحث فيها علماء دون آخرين، غير أنّ طرق ومناهج البحث في هذه العلوم تختلف بين بني البشر عامّة، والعلماء منهم خاصّة، باختلاف تصوّراتهم لكيفيّة تناول العلم، حتّى يتلاءم وأهداف البحث، والظّروف المحيطة به، ويحقّق النّتائج المرجوّة منه.

فقد "اعتمد النّحاة العرب الأوّلون في بحوثهم الخاصّة باللغة العربيّة على وسائل تحليليّة وهي وسائل تعتمد بالضّرورة على العقل. إلّا أنّ لتدخّل العقل أكثر من طريقة وإن كان يتّفق جميع البشر من العلماء خاصّة في الاعتماد على أصول عقليّة أوليّة. فإنّ طريقة النّظر لتحصيل العلم تختلف من قوم إلى آخر ومن زمان إلى آخر ولكلّ قوم وكلّ زمان تصوّر ومنظور أو أكثر من منظور"[2].

وبذلك، فإنّ معظم ما افتُرِض من جوانب تأثّر النّحو العربيّ بالأنحاء الأخرى؛ الهنديّة واليونانيّة منها خاصّة، يمكن أن يندرج تحت التّفكير الإنسانيّ المشترك؛ ففكرة الإسناد هي مقوّم أساسيّ من مقوّمات الجملة قديمًا وحديثًا، وفكرة التّعليل قائمةٌ على سلوك الإنسان الفطريّ السّائل عن علل الأشياء، وفكرة القياس لا تبتعد عن مقولة قياس الفطرة والعقل[3].

فنظرة النّحاة العرب القدامى إلى اللّغة مغايرة تماما لنظرة أرسطو[4]، فهي نظرة لغويّة محضة بعيدة عن الاعتبارات المنطقيّة، تتعلق بالخطاب وكل ما يرتبط به، من متكلّم ومخاطب، وألفاظ ومعان وأغراض، ونظام لغة وقرائن، وغير ذلك ممّا يخصّ التّخاطب، بقطع النّظر تمامًا عمّا يمكن أن يتّصف الخطاب بأنّه حمل عرض على جوهر، وما الحكم المنطقيّ سوى جانب واحد من الجوانب الّتي يمكن أن يعبّر عنها الخطاب[5].

وبهذا؛ فالرّأي الّذي يتكرّر دومًا عند علماء العرب، هو أنّ علم النّحو انبثق من العقليّة العربيّة المحضة[6]، حيث إنّ ما لجأ إليه النّحاة العرب القدامى من الوسائل العقليّة ووسائل البحث عامة، هو شيء اختصّ به هؤلاء النّحاة وانفردوا به، لأنّه لا يوجد ما يماثله تمامًا عند علماء اللّغة السّنسكريتيّة الهنود، ولا عند الفلاسفة والنّحاة اليونانيّين، وإن كانت بعض الجوانب من طرائق التّحليل عند النحاة الهنود واليونانيّين قد تشبه ما استعمله العرب[7].

2.3.حجج نقض فرضيّة تأثّر النّحو العربي بالمنطق اليوناني:

ممّا يؤكّد عدم تأثّر النّحو العربيّ –في بدايته– بالمنطق الأرسطيّ، ما يلي:

- الحالة اللّغويّة الّتي كان عليها المجتمع الإسلامي الجديد، وحاجة المسلمين الشّديدة إلى معرفة لغة القرآن بوسائل تمكّن المتعلّم للعربيّة من معرفة ما هو جائز في هذه اللّغة.

- اللّغات البشريّة هي قبل كلّ شيء ألفاظ تتركّب من وحدات، ولكلّ وحدة تركيب وبنية تشاركها فيها وحدات أخرى، وعلى هذا لا يمكن أن نسلّط عليها في تحليلها أيّ نوع من المنطق، بل ما يناسب فقط ماهية اللّغة من حيث هي صيغ وبنى متواضع عليها[8].
- ترجمة الفلسفة اليونانيّة عامّة، والمنطق الأرسطي خاصّة، لم تحصل إلا في مطلع القرن الثّالث الهجري، أي؛ بعد نضوج واكتمال صرح النّحو العربيّ، حيث إنّ الاتّصال الثّقافي بين العرب وغيرهم لم يتحقّق إلّا في العصر العباسيّ، في حين كانت علوم العربيّة قد تحدّدت مادّتها وأساليبها في العصر الأمويّ، وهكذا تتّضح بصورة حاسمة أصالة العلوم الإسلاميّة في نشأتها ومادّتها، وما اصطنعته لعلاج هذه المادّة من مناهج[9].

وهذا ما يرجّح أصالة النّحو العربيّ، في أنّه تفكير عربيّ خالص، أوجدته وأذكت شعلته الثّورة الدّينيّة، ممثّلة في العناية بالقرآن الكريم، وما البساطة والعفويّة في تناول القضايا النّحويّة، سوى دليل بيّن على هذه الأصالة[10]، فقد تناول أوائل النّحاة المادّة المسموعة بتتبّع الظّواهر اللغويّة فيها وتكرّرها، فلاحظوا تلازما استعماليًّا بين بعض العناصر كالفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، وغيرها، وفي الوقت ذاته، عالجوا كلّ باب على حِدة؛ فبحثوا فيه عن مدى اطّراد الرّفع أو النّصب، أو الجرّ، أو غيرها، فتكوّنت الأصول الأولى للنّحو العربيّ.

من روّاد العربيّة وعباقرة النّحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ الذي كان له تصوّر علميّ وأدوات تحليليّة، لا يضاهيها في القيمة العلميّة إلّا ما ابتكره العلماء في عصرنا هذا، وذلك من النّاحية اللّغويّة والنّاحية المنهجيّة التجريبيّة، كليهما، ومن هذا المنطلق، يدعونا عبد الرّحمن الحاج صالح إلى الرّجوع إلى تراث الخليل وسيبويه، لاكتشاف الجوانب العلميّة المعاصرة فيه، قائلا: "تعال نحي علم الخليل"[11]، ويقترح نظريّة جديدة وسمها بالنّظريّة الخليليّة الحديثة، التي تستدعي في شقّها النّحوي –لغاية علميّة تعليميّة– تناول اللّغة بالتّحليل العلميّ لظواهر الكلام العربيّ.

فبعدما أثبت عبد الرّحمن الحاج صالح أصالة النّحو العربيّ؛ بعدم تأثّره –في نشأته–بالأنحاء الأخرى، راح يلحّ على ضرورة تجديد النّحو العربيّ، بتأصيل البحث في التّراث النّحويّ العربيّ، وذلك بتأكيده على ضرورة إعادة بعث روح الإبداع العلميّ، بالاعتماد على نظريّة لغويّة تُستنبط من اللّغة العربيّة، لا من لغات أخرى غير العربيّة، ولا سيما اللّغات الأوربيّة، الّتي تُغايِر تمامًا في نظامها اللّغة العربيّة[12]، واستلهام مفاهيم الخليل ومنهجه الإجرائي التّحليليّ للظّواهر النّحوية.

4.الدّراسة اللّسانيّة الوصفيّة للّسان العربيّ

بعدما تسلّح كثيرٌ من الباحثين العرب المحدثين بمناهج اللّسانيّات الحديثة، حاولوا — من منطلقها- إعادة وصف اللّغة العربيّة، وبناء نظريّة نحويّة جديدة، بديلة عن النّظريّة النّحويّة التّقليديّة، الّتي رأوا أنّها أثقلت كاهل النّحو العربيّ، بإقحامها فيه مفاهيم وتصورات خارجة عنه، فوعّرت بذلك تعلّم اللّغة العربيّة وتعليمها، من هنا، تبنّى تمّام حسّان – مثل باقي الباحثين- فكرة تخليص النّحو العربيّ من الصّعوبة والتّعقيد، ودعا إلى التّجديد والتّيسير، وفق المنهج اللّسانيّ الوصفيّ.

وهذا ما يبسط القول فيه تمّام حسّان، مصرّحا: "ولقد اتجهت نفسي إلى دراسة المعيارية والوصفية حين رأيت الناس في معظمهم يشكون داء في النحو العربي لا يستطيعون تشخيصه؛ فإذا أرادوا تشخيص هذا الداء انصرفوا دون قصد إلى سرد أعراضه؛ فتكلموا في جزئيات النّحو، لا في صلب المنهج .وشتان بين من ينقد أجزاء المادة وبين من يريد علاج الفلسفة التي انبنت عليها دراستها .لهذا فكرت في أمر الدراسات العربية القديمة، من حيث المنهج لا من حيث التفاصيل، وجعلت تفكيري في أمرها مستضيئا بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة"[13].

يقرّ تمّام حسّان بنقاء البحث اللّغويّ العربيّ — في بدايته- من شوائب التّأثّر بأيّة مؤثّرات خارجيّة، كما يصف الدّراسة اللّغويّة العربيّة بأنّها دراسة علميّة وصفيّة، فيقول: "لقد كانت دراسة اللغة تدور في مبدأ الأمر على تلقّي النّصوص من أفواه الرّواة، ومشافهة الأعراب وفصحاء الحاضرة، فكان ثمّة مجال للاستقراء واستنباط القاعدة من تقصّي سلوك المفردات والأمثلة، ومن ثمّ رأينا الدّراسات العربيّة الأولى تتّسم بالوصف"[14].

يتّفق تمّام حسّان مع عبد الرّحمن الحاج صالح، في أنّ الدّرس العربيّ – في نشأته وحتّى حدود القرن الثالث الهجري- كان نحوًا علميًّا؛ اتّبع مناهج وآليات عفويّة بسيطة، في تسجيل المسموعات العربيّة الفصيحة، واستقراء المدوّنة اللّغويّة، الّتي تمثّلت أساسًا في القرآن الكريم، والشّعر العربيّ، ثمّ استخراج القواعد الممثّلة للشّواهد المسموعة فعلًا، وبعد ذلك يتمّ قياس مالم يُسمَعْ من الكلام على ما سُمِع.

1.4.منهج النّحاة العرب

1.4.أ. الدّراسة التّحليليّة للمبنى

يرى تمّام حسّان أنّ الدّراسات اللّغويّة العربيّة قد اتّسمت بسمة الاتّجاه إلى المبنى أساسًا، حيث تناولت المبنى المستعمل على مستوى الجملة، ولم يكن قصدها إلى المعنى إلّا تبعًا لذلك، وعلى استحياء[15]. ونهجوا منهج التّحليل؛ فقسّموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وكشفوا عن المعرَب والمبنيّ من كلّ قسم، وبوّبوا الأبواب النّحويّة داخل الجملة، وبيّنوا العلامات المميّزة لكلّ باب، وفصّلوا في بعض المعاني الوظيفيّة التي تؤدّيها العناصر اللّغويّة،

كالتّذكير والتّأنيث، والتّنكير والتّعريف، والإفراد والتّثنية والجمع، والتّكلّم والحضور والغيبة، والصّرف وعدمه، والعلامة الإعرابيّة، وهلمّ جرّا[16].

فدراسة النّحو كانت تحليليّة لا تركيبيّة، أي؛ أنّها كانت تُعنَى بمكوّنات التّركيب، أي؛ بالأجزاء التّحليليّة فيه أكثر من عنايتها بالتّركيب نفسه، فلم يُعطِ النّحاة عناية كافية للمعاني التّركيبيّة، والمباني الّتي تدلّ عليها، ومن ذلك مثلًا: معنى الإسناد باعتباره وظيفة، ثمّ باعتباره علاقة، ثمّ تفصيل القول في تقسيمه إلى إسناد خبريّ وإسناد إنشائيّ[17]. ولقد كان على النّحاة من حيث المبدأ أن ينظروا إلى التّحليل باعتباره طريقًا للوصول إلى التّركيب، وأن يكون علم المعاني قمّة الدّراسات النّحويّة أو فلسفتها[18].

إلّا أنّ عبد الرّحمن الحاج صالح يفرّق بين مفهومي الوضع والاستعمال، فيرى أنّه لئن كان النّحاة العرب قد اهتمّوا بالنّظام الدّاخليّ للّغة، وما تقوم به اللّغة من دور في الإفادة، فإنّهم قد ميّزوا جيّدًا بين كلّ ما هو راجع إلى الوضع من جهة، أي؛ ما يخصّ اللّفظ الموضوع للدّلالة على معنى، وهذا المعنى المدلول عليه باللّفظ وحده، ومن ثمّ بِنيَة هذا اللّفظ بقطع النّظر عمّا يؤدّيه في واقع الخطاب، ومن جهة أخرى ما هو راجع إلى استعمال هذا اللّفظ، أي؛ إلى تأديته للمعاني المقصودة بالفعل، وهي الأغراض[19].

1.4.ب. النّحو العلمي والنّحو التّعليمي

يصف تمّام حسّان النّحو العربيّ، بأنّه نحوٌ تعليميٌّ، وذلك لأنّ الغاية التي نشأ النّحو العربي من أجلها، وهي ضبط اللغة وإيجاد الأداة التي تعصم اللاحنين من الخطأ، فرضت على هذا النّحو أن يتّسم في جملته بسمة النّحو التعليمي لا النّحو العلمي[20].

غير أنّ عبد الرّحمن الحاج صالح، يصف النّحو العربيّ – عند نشأته– بسمتي العلميّة والتّعليميّة كلتيهما معًا، فقد كان النّحو العربي علميّا لأنّه كان تدوينا لأوّل مرّة في التّاريخ لأصول العربيّة، ولأنّ الذين وضعوه قاموا باستقراء النّص القرآني لاستنباط هذه الأصول بالموضوعيّة اللّازمة. وبدئ بتعليم هذه الأصول بمجرّد ما تمّ إثباتها بهذه الكيفيّة. ثمّ احتاج الباحث فيه أن يبرّر ما يجيزه من الكلام، فاضطرّ أن يأتي بأدلّة علميّة من قبيل التّفسير العلمي[21].

1.4.ج. المعياريّة والوصفيّة

اتّصف النّحو العربي بأنّه — في عمومه– نحو معياري، لا نحو وصفي، حيث يتّضح ذلك من خلال فرض القاعدة النّحوية نفسها على الاستعمال اللغوي، بتقديم القياس النّحوي على السّماع اللغوي؛ فبعد استقراء النّحاة للمسموعات العربيّة الفصيحة، وتحليلها، توصّلوا إلى وضع قواعد، جعلوها أحكامًا، فكانت في نظرهم أولى

بالاعتبار ممّا خالفها من المسموع، ووجّهوا ما خرج عن هذه القواعد، توجيهات كثيرة، بلجوئهم إلى تعليلها أو تأويلها أو نعتها بالشّذوذ.

وهذا ما يشرحه تمّام حسّان، بقوله: "...ثمّ وضع حدّ فاصل انتهى عنده عصر الاحتجاج، وجاء وقت كان الرّواة قد أفرغوا ما في جعبتهم، وبذا جفّت روافد الرّواية، وانحسر المدّ الذي كان يفيض على الحواضر، فوجد النّحاة أنفسهم وجها لوجه مع تجربة جديدة هي أن يتكلموا في النّحو دون اعتماد على روايات جديدة، وبذا أصبحت الرّوايات القديمة مقاييس متحجّرة كان من الواجب في رأي النّحاة على طلّاب الفصاحة أن يحتذوها، وبدأ الكلام عند هذا الحدّ فيما يجوز وفيما لا يجوز من التّراكيب، بل بدأ الكلام فيما يجب منها أيضا"[22].

غير أنّ عبد الرّحمن الحاج صالح ينقض دعوى وصف النّحو العربي بأنّه نحو معياري صِرف، بقوله: "أمّا فيما يخصّ الغرض من الوصف واختيار معيار معيّن، فليس هو غرض صدر من العلماء، ولا اختيارهم وحدهم، بل هو راجع إلى المجتمع وما يريده من البقاء، كمجتمع له خصوصيّته. ثمّ ليس من لغة في الدّنيا إلّا ولها معيار مادام هناك جماعة من النّاس ينطقون بها. فهل من لغة في الدّنيا لا يخضع النّاطقون بها لما تواضع عليه المجتمع الذي ينتمي إلى هذه اللغة؟ وهل هذا المتواضع عليه من نظام نحوي صرفي ونظام معجمي إلّا المعيار الذي اختاروه وتوارثوه؟"[23].

فالقاعدة النّحويّة، هي أهمّ مخرجات الدّراسة الوصفيّة، "وإنّ الدّراسة الوصفيّة لتختار مرحلة بعينها، من لغة بعينها، لتصفها وصفا استقرائيّا، وتتّخذ النّواحي المشتركة بين المفردات الدّاخلة في هذا الاستقراء، وتسمّيها قواعد. فالقاعدة في الدّراسة الوصفيّة ليست معيارا، وإنّما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعليّة"[24].

ومعيار العربية "لم يكن معيارا تحكّميا وذاتيّا؛ إذ مرجعه الموضوعي هو لغة القرآن، ولغة النّاطقين بهذه اللغة قبل ظهور الإسلام، وبعده ممّن لم تتغيّر لغتهم... فهذه لغة قوم معروفين تاريخيّا وجغرافيّا ولغة نصّ هو القرآن الكريم، يعتبر هو المرجع الأوّل لمعيار العربيّة"[25].

ووصف النّحاة العرب الكلامَ بالحسن أو القبح، أو الجواز وعدم الجواز، لا تعدّ أحكاما ذاتيّة أبدًا ولا تحكّميّة، بل هي جدّ موضوعيّة، لأنّها صادرة من مشاهدتهم وتتبّعهم للاستعمال الفعليّ للنّاطقين، أصحاب هذه اللّغة السّليقيين، فكلّ حكم من ذلك مرجعه سلّم الكثرة والقلّة الذي اعتمدوه[26].

1.4.د. دراسة اللهجات العربيّة

نقد تمّام حسّان منهج النّحاة العرب في دراستهم للهجات العربية، حين اعتمدوا على لهجات عربيّة متعدّدة، ليستخرجوا منها نظامًا نحويًّا موحّدًا، واقتصروا في ذلك على قبائل معيّنة دون غيرها، كما عالجوا هذه

اللهجات في أطوار متعدّدة من نموّها، فلم يفطنوا إلى ضرورة الفصل بين مرحلة وأخرى من تطوّر اللغة[27]، ولقد كان لهذا الموقف التّلفيقي أثره في المعنى النّحوي والصّرفي، سواء ما كان ذلك متّصلًا بالرّواية أو بالاستشهاد أو بالسّماع والقياس أو بالتّمرينات القياسية التي كانت تأخذ صورة تراكيب لم تسمع عن العرب، أو بموقفهم من التّصويب والتّخطئة[28].

فاللغة العربيّة الفصحى التي أصبحت لغة مشتركة للعرب من جميع القبائل، كانت لغة الحجّ و الأسواق والمجامع الأخرى، واتّصالها بالحجّ وبمكّة هو الذي دعا بعض اللغويّين إلى أن يسمّيها لهجة قريش، والملاحظ أنّ هذه اللهجة الفصحى تقْرب إلى كلّ لهجة عربيّة، فتكون أدنى إليها من غيرها من اللهجات، وإنّما كانت قريبة منها لأنّ بعض عناصر تركيبها ملاحظٌ فيها. فالفصحى لكونها لغة العرب جميعا، تمّ نموّها في المجتمع العربي في عمومه، لا في قبيلة بعينها، وتقبّلت في نموّها عناصر من جميع اللهجات، حتى بدت قريبة إلى كلّ لهجة[29].

يعيد عبد الرّحمن الحاج صالح النّظر في الأمثلة المتنوّعة للفظة « لغة»، ويتتبعها في السّياقات المختلفة التي وردت فيها في كتاب سيبويه، فيجد أنّ لفظ « لغة» قد أُطلِق على كيفيّة خاصّة في استعمال العرب أو جماعة منهم لعنصر خاصّ من عناصر العربيّة، كالنّطق بصوت معيّن أو استعمال لصيغة كلمة معيّنة أو لتركيب معيّن، ولم يُطلق على لهجة بأكملها، أي؛ على لسان خاصّ بقبيلة أو بإقليم، فالمقصود من كلمة « لغة» هو طريقة استعمال جميع العرب أو أكثرهم أو الكثير منهم أو أفراد قلائل منهم لوحدة من وحدات العربيّة على اختلاف مستوياتها[30].

وبهذا فهو –عبد الرحمن الحاج صالح- لا يعترف بوجود لهجات تعايشت جنبا إلى جنب واللغة العربية الفصحى، بل يرى أنّها لا تعدو أن توصف بأنّها طرق استعماليّة للسان العربي على مستوياته الصّوتية والصّرفية والتّركيبية.

2.4.الدّعوة إلى إعادة دراسة اللغة العربيّة دراسة وصفيّة

دعا تمّام حسّان إلى إعادة وصف اللغة العربية وفق منهج جديد، يكون بإلغاء بعض مسائل النّحو العربي التي أثقلت كاهله – بحسب زعمه- فثار على نظريّة العامل، باعتبارها نتاج تفكير فلسفي في اللغة، سعيا منه إلى تقديم نظريّة جديدة، بسيطة ومتكاملة، بديلة عن نظريّة النحو العربي التّقليدي، تقدم تفسيرًا يسيرًا للتّركيب النّحوي العربي، بعيدًا عن الصّعوبة والتّعقيد.

2.4.أ.الدّعوة إلى إلغاء نظريّة العامل النّحوي

يستهجن تمّام حسّان ارتكاز النّحاة العرب أساسًا على نظريّة العمل والعامل النّحوي، فيقول: "ولقد أكثر النحاة الكلام عن العامل باعتباره تفسيرًا للعلاقات النحوية أو بعبارة أخرى باعتباره مناط «التعليق» وجعلوه تفسيرًا لاختلاف العلامات الإعرابية وبنوا القول به فكرتي التقدير والمحل الإعرابي وألفوا الكثير من الكتب في العوامل سواء ما كان منها لفظيا أو معنويا"[31].

يظهر تمسّك تمّام حسّان الشّديد بفكرة إلغاء العامل النّحوي، من خلال قوله: "ما العامل إذًا؟ الحقيقة أنّ لا عامل. إن وضع اللغة يجعلها منظمة من الأجهزة، وكل جهاز منها متكامل مع الأجهزة الأخرى، ويتكون من عدد من الطرق التركيبية العرفية المرتبطة بالمعاني اللغوية، فكل طريقة تركيبية منها تتجه إلى بيان معنى من المعاني الوظيفية في اللغة. فإذا كان الفاعل مرفوعًا في النحو فلأن العرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع دون ما سبب منطقي واضح وكان من الجائز جدًا أن يكون الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعا، ولو أن المصادفة العرفية لم تجر على النحو الذي جرت عليه"[32].

كما يستغرب تمّام حسّان من اقتصار النّحاة على العلامة الإعرابيّة، وإعطائها الحظّ الأوفر من اهتمامهم، وهي لا تعدو –في نظريته– أن تكون واحدة من بين مجموعة من القرائن.

2.4.ب.اقتراح نظريّة تضافر القرائن

انطلق تمّام حسّان من مصطلح «التّعليق»؛ الذي ساقه عبد القاهر الجرجاني في تأسيسه لنظريّة النّظم، والذي فهمه تمّام حسّان على أنّه –التّعليق– إنشاء العلاقات بين المعاني النّحوية بواسطة ما يسمّى بالقرائن اللفظيّة والمعنويّة والحاليّة، ورأى أنّ التّعليق هو الفكرة المركزية في النّحو العربي، وأنّ فهْمَه على وجهه كاف للقضاء على فكرة العامل النّحوي، لأنّ التّعليق يحدّد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السّياق، ويفسّر العلاقات بينها، على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعًا في التّحليل النّحوي (الإعراب) لهذه المعاني الوظيفيّة النّحويّة[33].

وتضافر القرائن يُغني عن القول بفكرة العامل النّحوي الذي قال به النّحاة، والذي جاء لتوضيح قرينة لفظيّة واحدة، فهو إذًا قاصر عن تفسير الظّواهر النّحويّة والعلاقات السّياقيّة، على عكس فكرة القرائن؛ التي توزّع اهتمامها بالتّساوي بين القرائن النّحويّة اللفظيّة والمعنويّة، لتوصل إلى وضوح المعنى وأمن اللبس، وتنفي التّفسير الظّنّي والمنطقي لظواهر السّياق، وترف عن الجدل في متاهات العامل وأصالته أو ضعفه أو قوته، وتبعد عن التّأويل والتّعليل[34].

"فالقرائن تتضافر على إيضاح المعنى الوظيفي النحوي. والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها. وفي إدراك هذه الحقيقة تفسير لكثير مما عده النحاة مسموعا يحفظ ولا يقاس عليه أو عده شاذا أو قليلا أو نادرًا أو خطأ"[35].

يقسّم تمّام حسّان قرائن التّعليق إلى قسمين: قرائن حالية: يدلّ عليها المقام أو سياق الحال، وقرائن مقالية: لفظية ومعنوية؛ فاللفظية تتمثّل في: الإعراب والرّتبة والصّيغة والمطابقة والرّبط والتّضامّ والأداة والتّنغيم، والمعنوية هي: الإسناد والتّخصيص والنّسبة والتّبعيّة والمخالفة، وتحت كلّ قرينة من هذه القرائن فروع[36].

والمخطّط الموالي يجمع هذه القرائن:

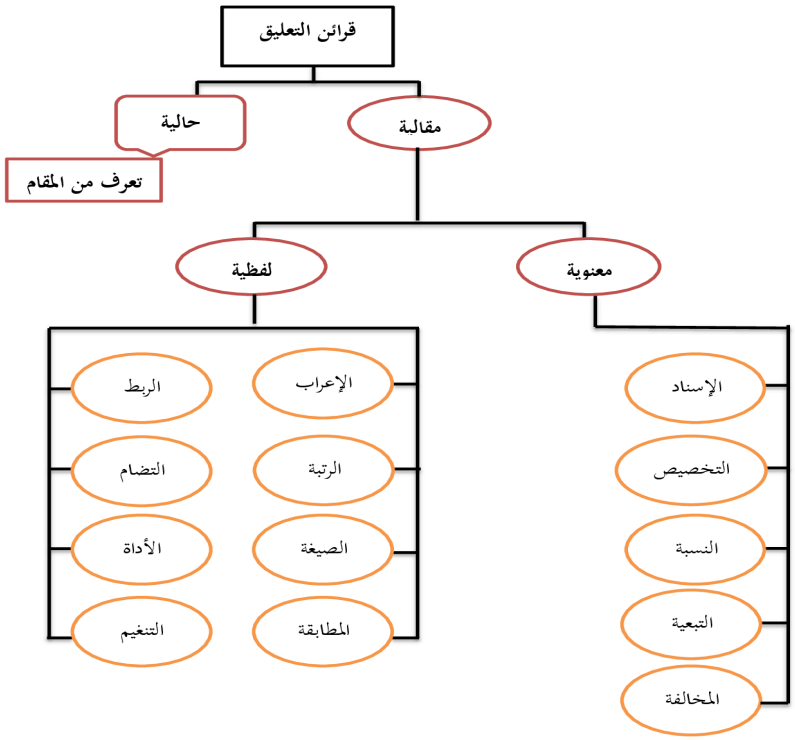

المصدر: حسّان تمّام: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص190.

2.4.ج. تحليل نظريّة تضافر القرائن

قدّم تمّام حسّان مجموعة من القرائن اللّفظية والمعنويّة، الّتي يمكن تحليلها من خلال تطبيقها على بعض الشّواهد النّحويّة، كما يأتي[37]:

- خَرَقَ الثَّوْبُ الْمِسْمَارَ

اعتمد النّحاة على القرينة المعنويّة، وهي: الإسناد، وأهملوا الحركة الإعرابيّة، إذ لا يصحّ أن يسند الخرق إلى الثّوب، وإنّما يسند إلى المسمار، فعُلم أيّهما الفاعل وأيّهما المفعول.

- جُحرُ ضبٍّ خربٍ

أغنت قرينة التّبعيّة، وهي قرينة معنويّة عن قرينة المطابقة في العلامة الإعرابية، وهي لفظيّة، وكان الدّاعي إلى ذلك داعيًا موسيقيًّا جماليًّا، هو المناسبة بين المتجاورين في الحركة الإعرابيّة، وقد سمّاه النّحاة«المجاورة».

- ثُمَّ قَالُوا تُحِبُّهَا؟ قُلْتُ بَهْرًا عَدَدَ النَّجْمِ وَالْحَصَا وَالتُّرَابِ[38].

والأصل: قالوا أتحبّها؟ فحذفت أداة الاستفهام، فأغنت بهذا قرينة التّنغيم (الاستفهام) عن قرينة الأداة.

وهذه الشواهد التي ساقها تمّام حسّان، متوفّرة في كتب التّراث النّحويّة واللغويّة، وقد عالجها النّحاة تحت مفاهيم: الإسناد، المجاورة، الحذف، فهي تختلف عمّا جاء به تمّام حسّان من جهاز مصطلحي جديد: القرائن، التّبعيّة، تضافر القرائن، وهي تفسّر بعض التّراكيب التي شّذذها النّحاة، وحفظوها، ولم يقيسوا عليها، لخروجها عن مطّرد الكلام العربي الفصيح المسموع.

5.خاتمة:

اتّجهت محاولات التّجديد والتّيسير النّحوي عند أصحاب الاتّجاه اللساني التّأصيلي – وعلى رأسهم عبد الرّحمن الحاج صالح– إلى إعادة قراءة التّراث النّحوي العربي، واستلهام وسائل النّظر والتّحليل منه، لبناء نظريّة لسانيّة عربيّة أصيلة في منهجها، وآليات تطبيقها على اللسان العربي من جهة، وتستجيب لمتطلّبات النّظريّات اللسانيّة الحديثة، من جهة أخرى.

أمّا دعاة الوصفيّة؛ فيمثّلهم تمّام حسّان، الذي قرأ التّراث العربي النّحوي قراءة نقديّة؛ مسّت أساسًا قويمًا من أسس النّحو العربي، وهي نظريّة العامل النّحوي، التي ثار عليها، وسعى نحو تقديم نظرية جديدة بديلة عنها، هي نظرية تضافر القرائن، التي تحاول تفسير النّحو العربي، تفسيرًا بعيدًا عن الصّعوبة والتّعقيد، بإبعاد العوامل والعلل والتّأويلات النّحويّة، التي كانت سببًا في وعورة الدّرس النّحوي العلمي والتّعليمي معًا.

وأبرز النّتائج المتوصّل إليها من هذا البحث، هي:

1- يهدف عبد الرّحمن الحاج صالح من دعوته إلى إحياء تراث الخليل النّحوي، إلى إثبات أصالة وعِلميّة البحث النّحوي العربي، في القرون الثلاثة الأولى، بالحجج والبراهين العقليّة والمرويّات الصّحيحة.

2- يعدّ عمل عبد الرّحمن الحاج صالح ردّ فعل غير مباشر على حملات نقد أسس النّحو العربي، الّتي شنّها بعض اللسانيّين العرب المحدثين، وذلك من خلال دعوته إلى اتّباع المنهج العلمي في فهم قضايا التّفكير النّحوي العربي.

3- نجد تمّام حسّان يركّز اهتمامه على جانب المعنى أكثر من عنايته بالمبنى، وقد نتج عن نقده للتّراث النّحوي العربي، رفضه للعامل النّحوي، واقتراحه لنظريّة تضافر القرائن.

4- تستطيع نظريّة تضافر القرائن إيضاح المعنى الوظيفي النّحوي لبعض التّراكيب العربيّة المسموعة الفصيحة، فتنأى بنا عن التّأويل، غير أنّها لا يمكن أن تعوّض نظريّة العامل التي بُني عليها النّحو العربي، لغاية علميّة وتعليميّة.

الاقتراحات:

نظرًا لما لمسه الباحث من تميّز بحوث هذين الباحثين: عبد الرّحمن الحاج صالح وتمّام حسّان، واتّسامها بالعلميّة، يقترح الباحث توسيع دائرة البحث في مؤلفاتهما، لاستنطاق النّظريّات التي توصّلا إليها، والتّدريب على آلياتها التّطبيقيّة.

التّوصيات:

يوصي الباحث بضرورة تضافر جهود التّأصيل والتّجديد معًا، في سبيل تيسير النّحو العربي؛ فالتّأصيل يبحث في الموضوع، أي؛ في أسس التّفكير النّحوي، والتّجديد يدرس آليات تفسيره، بالتّركيز على مادّة البحث.

6.الهوامش:

[1] ينظر: المزيني حمزة بن قبلان: (**مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة**)، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عمان-الأردن، ع 53، السنة21، 1997م، ص ص32-33.

[2] الحاج صالح عبد الرحمن: **منطق العرب في علوم اللسان**، موفم للنشر، د/ط، الجزائر، 2012م، ص7.

[3] ينظر: فلفل محمد عبدو : **مراجعات في النحو العربي**، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، د/ط، دمشق، 2018م، ص19.

[4] ينظر: **منطق العرب في علوم اللسان**، مصدر سابق، ص64.

[5] ينظر: المصدر نفسه، ص76.

[6] ينظر: بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، د/ط، 1968م، ج2، ص123.

[7] ينظر: **منطق العرب في علوم اللسان**، مصدر سابق، ص28.

[8] ينظر: المصدر نفسه، ص30.

[9] ينظر: أبو المكارم علي: **تقويم الفكر النحوي**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م، ص48، 49.

[10] ينظر: **مراجعات في النحو العربي**، مرجع سابق، ص ص19-21.

[11] عبد الرحمن الحاج صالح: **بحوث ودراسات في اللسانيات العربية**، موفم للنشر، د/ط، الجزائر، 2012م، ج2، ص58.

[12] ينظر: المصدر نفسه، ص80.

[13] حسان تمام: **اللغة بين المعيارية و الوصفية**، عالم الكتب، ط4، القاهرة-مصر، 2001م ص11.

[14] حسان تمام: المصدر نفسه، ص44.

[15] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص12.

[16] ينظر: المصدر نفسه، ص16.

[17] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص16.

[18] ينظر: المصدر نفسه، ص ص17، 18.

[19] ينظر: **بحوث ودراسات في اللسانيات العربية**، مصدر سابق، ص36.

[20] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص13.

[21] ينظر: **السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة**، مصدر سابق، ص13، 14.

[22] **اللغة بين المعيارية والوصفية**، مصدر سابق، ص44.

[23] **منطق العرب في علوم اللسان**، مصدر سابق، ص246

[24] **اللغة بين المعيارية والوصفية**، مصدر سابق، ص24.

[25] **منطق العرب في علوم اللسان**، مصدر سابق، ص247.

[26] ينظر: المصدر نفسه، ص248.

[27] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص14.

[28] ينظر: المصدر نفسه، ص15.

[29] ينظر: **اللغة بين المعيارية والوصفية**، مصدر سابق، ص67.

[30] ينظر: **السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة**، مصدر سابق، ص154.

[31] **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص185.

[32] **اللغة بين المعيارية والوصفية**، مصدر سابق، ص57.

[33] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص ص 186-189.

[34] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص231، وينظر أيضا: عمايرة خليل أحمد: **في التحليل اللغوي: منهج وصفي تحليلي وتطبيقه على التوكيد اللغوي، والنفي اللغوي، وأسلوب الاستفهام**، مكتبة المنار، ط1، الزرقاء-الأردن، 1987م، ص87.

[35] **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص240.

[36] ينظر: المصدر نفسه، ص ص 191-231.

[37] ينظر: **اللغة العربية معناها ومبناها**، مصدر سابق، ص ص234-240.

[38] أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة: **ديوان عمر بن أبي ربيعة**، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت-لبنان، 1996م، ص83.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1.7. المؤلفات:

1- بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، تر: عبد الحليم النجار، دار المعارف، د/ط، 1968م.

2- الحاج صالح عبد الرحمن: منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، د/ط، الجزائر، 2012م.

3- ـــــــــــــــــ: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، د/ط، الجزائر، 2012م.

4- ـــــــــــــــــ: السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2012م.

5- حسان تمام: اللغة بين المعيارية و الوصفية، عالم الكتب، ط4، القاهرة-مصر، 2001م.

6- ـــــــــ: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط6، القاهرة-مصر، 2009م.

7- أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة: ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت-لبنان، 1996م.

8- عمايرة خليل أحمد: في التحليل اللغوي: منهج وصفي تحليلي وتطبيقه على التوكيد اللغوي، والنفي اللغوي، وأسلوب الاستفهام، مكتبة المنار، ط1، الزرقاء-الأردن، 1987م.

9- فلفل محمد عبدو : مراجعات في النحو العربي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، د/ط، دمشق، 2018م.

10- أبو المكارم علي: تقويم الفكر النحوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005م.

2.7. المقالات:

11- المزيني حمزة بن قبلان: (مكانة اللغة العربية في الدراسات اللسانية المعاصرة)، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عمان-الأردن، ع 53، السنة21، 1997م.